المربية

القصة المصرية ...

بقلم الأستاذ ...

لم يكن بالحجرة سوى الفتاتين ، وقد أطفئت الأنوار ولم يبق الظلام سوى بصيص من الضوء كان ينبعث من الفراشين . وهدأت أنفاس الفتاتين حتى كان يظن أنهما نائمتان

وسرى همس منخفض رقيق من أحد الفراشين ، وكان المتحدث هو الفتاة التي بلغت الثانية عشرة

فسألتها أختها التي كانت تكبرها بسنة قائلة « ماذا تقولين ؟ »

قالت : إني جد مسرورة لأنك لا تزالين مستيقظة فإن لدى ما أود أن أقوله لك

ولم يكن هناك جواب بالألفاظ ، وإنما تحرك شيء من الفراش الآخر ، وكانت الفتاة الكبرى قد جلست منتظرة وعيناها تتألقان في الضوء الواهن

قالت الصغرى : انظري هنا فهذا ما أريد أن أخبرك به ، ولكن قبل كل شيء هل لحظت أحمر

بقلبين عنيفين

وكان يفكر في حياته طوال السنوات الخمس الماضية وما انحدر إليه من تدهور وإسفاف فيحس كأنه يفكر في أمر شخص غريب لا يكاد يمت إليه إلا بأوهى الصلات ، وانصرف تفكيره كله إلى المستقبل الذي يريد أن يحقق في أيامه ما يعوضه من الماضي الضائع

والتقيا بعد ذلك مرات وكان يحدثها في بساطته القديمة المحببة عما يأمل ويتمنى فتجيبه بأن أمانيه وآماله هي ما يخفق به قلبها ويحلم به ليل نهار

وتزوجا بعد أمد قصير ...

وبرت أمينة بوعدها وعهودها ، وعاونته على الحياة الطيبة وعاشا معا كطفلين ساذجين فرحين بالحياة ، واستطاع رأفت أن يجد عملا جديدا مربحا ومريحا ، وما لبثت أمينة أن استقالت من عملها لتتوفر على شئون منزلها ، وبعد عام من زواجهما رزقا فتاة أطلقا عليها الاسم الذي طاف بذهن أمينة منذ أن شعرت بأعراض الحمل وهو « إنصاف »

نصرى عطا الله

شيئا يثير الضحك في سلوك الآنسة متى ؟

فقالت الكبرى بعد قليل من الصمت « م . لقد لحظت شيئا ، ولكنني لا أدرى ما هو ، فهي أقل تدقيقا مما كانت ، فمنذ يومين وأنا لا أؤدى تمرينات الطالوية ، ومع ذلك لم توجه لى أى لوم . ولست أدرى ماذا حدث ، ولكنها فيما يبدو أصبحت لا تعنى بنا ، فهي تقعد منفردة بنفسها ولا تشاركنا في ألعابنا كما كانت تفعل من قبل

فأجابت الصغرى : أحسبها حزينة ، وهي تحاول إخفاء حزنها ، وهى لا تعرف على البيان الآن »

ومرت فترة سكوت ، واستأنفت بعدها الفتاة الكبرى الحديث قائلة « لقد ذكرت أن لديك شيئا تودين أن تفضي إلى به »

فقالت الصغرى : نعم ، ولكن عليك أن تحتفظي به لنفسك ولا تقولى عنه كلمة واحدة لوالدتنا أو لصديقاتك لولى »

فأجابت الكبرى في غضب « إنى بطبيعة الحال لا أفعل ذلك . فاسترسلي في حديثك

قالت الصغرى :

« بعد أن أوينا إلى الفراش أدركت فجأة أنى لم أقبل الآنسة متى في مساء ، فلم أتردد في لبس حذائى واسترقت الخطى إلى حجرتها قاصدة مفاجأتها ، ولذا فتحت الباب بهدوء وظننت لحظة أنها غير موجودة بالحجرة ، ورغم ضوء الحجرة لم أستطع رؤيتها ، وفجأة تملكتني الدهشة ، فقد سمعت نحيبا ورأيتها راقدة فوق فراشها بملابسها وقد أخفت رأسها بين الوسائد ، وكانت تبكى بكاء شديدا جعلنى أستشعر الألم ، ولكنها لم تلحظني ، وتسللت من الحجرة وأقفلت الباب برفق وهون ولبثت لحظة في خارج الحجرة لأني كدت أعجز عن المشى ، وظللت أسمع نحيبها من خلال الباب ، ثم عدت أدراجى »

ثم لاذت الفتاتان بالصمت لحظة ، ثم قالت الكبرى متنهدة « يالها من مسكينة ! »

وعادتا كلتاهما إلى الصمت

وواصلت الصغرى الحديث قائلة : « إنى فى دهشة من أمرها ولست أدرى ما الذى أبكاها ، ولم تحدث مشاجرة أخيرا لأن الوالدة قد كفت عن تعنيفها كما كانت تفعل دائما ، وإنى واثقة من أننا لم نتعبها فما سبب بكائها ؟ »

فقالت الكبرى « أحسبنى أستطيع أن أحزر ذلك »

فقالت الصغرى :

حسن ، اذكرى ما عندك إذا !

فترددت الكبرى في الرد ، ولكنها قالت أخيرا « أعتقد أنها تحب »

ففزعت الفتاة الصغرى وقالت « تحب ؟

فأجابت الكبرى : « بطبيعة الحال أقصده ! وهو يحبها ، ففي خلال السنوات الثلاث التي قضاها معنا لم يشاركنا في نزهتنا إلا منذ شهرين أو ثلاثة أشهر . والآن لا يفوته أن يصحبنا يوما من الأيام ، وهو لم يكد يلاحظنا إلا بعد قدوم الآنسة مان ، وهو الآن ما ينفك يحوم حولنا ، وفي كل مرة نخرج نصادفه في الميدان أو في الحدائق أو في أي مكان آخر تصحبنا إليه الآنسة مان ، وأنا واثقة أنك لحظت ذلك ؟ »

فأجابت الصغرى « نعم ، لحظته بالضرورة ولكني ظننت ... »

ولم تتم جملتها

فقالت أختها : « إني لم أشأ أن أشغل بالي بالموضوع في أول الأمر ، ولكني بعد حين أدركت أنه يخفي سببا »

وبعد صمت طويل أخذت الفتاتان تقلبان فيه الأمر على وجوهه ، وكانت الصغرى هي التي بدأت بالخروج من الصمت ، وعاودت الحديث قائلة :

« ولكن إذا كان الأمر كذلك فلم يحكى أنه مستهام بها ، وأنا دائما أظن أنه مما يسر الإنسان أن يكون محبوبا ؟ »

فقالت الكبرى في لين ورقة : « إني أرى ذلك ، ولا أستطيع أن أتبين الأمر » ثم أرسلت هذه الكلمات في نبرة يخالطها النوم « يالها من مسكينة هذه الآنسة مان !! »

وانتهى حديثهما في تلك الليلة

ولم تشيرا إلى هذا الحديث في الصباح ، ولكن كل واحدة منهما كانت تعلم أن أفكار الأخرى كثيرة الدوران حول هذا الموضوع ، ولم تعمد إحداهما النظر في عين الأخرى لتستوضح ذلك ، ولكنهما كانتا تتبادلان النظرات حينما تقع عيناهما على الربية ، وكانتا على الطعام تراقبان ابن عمهما أوتو كأنه شخص غريب ، ولم توجها إليه حديثا ، ولكنهما كانتا تختلسان النظر إليه وتحاولان أن تكشفا هل هنالك تفاهم خفي بينه وبين الآنسة مان . ولم تحفلا بأسباب التسلية لأنهما كانتا لا تفكران في شيء سوى هذا اللغز الخطير . وفي المساء سألت إحداهما الأخرى وهي تحاول أن تتظاهر بعدم الاكتراث :

« ألم تلاحظي شيئا جديدا اليوم ؟ »

فأجابت أختها باختصار « كلا »

والواقع أنهما كانتا تتهيبان الخوض في الموضوع ، وظل الحال على هذا المنوال عدة أيام ، وكانت الفتاتان لا تكفان عن الملاحظة في صمت وقد استولى عليهما القلق وانشغال البال ، ولكنهما كانتا تشعران بأنهما قريبتان من كشف سر عجيب

وأخيرا لحظت الفتاة الصغرى في أثناء

العشاء أن المربية أشارت إلى أوتو إشارة لا يكاد يدركها أحد ، وأنه أحنى رأسه ردا على هذه الإشارة ، فانتفضت من الانفعال وركلت أختهـا ركلة خفيفة تحت غطاء المائدة ، فنظرت الكبرى إليهـا مستفسرة فردت عليهـا بنظرة ذات معنى . وظلت الفتاتان على أحر من الجمر حتى انتهى تناول الطعام . وفى عقب انتهـائه قالت المربية للفتاتين :

« اذهبا إلى حجرة الدراسة وابحثا عن عمل تؤديانه فإنى أشعر بصداع وسأستلقى على الفراش نصف ساعة »

وفى اللحظة التى وجدت الفتاتان أنهما فى عزلة انفجرت الصغرى قائلة : « سترين إن أوتو ذاهب إلى غرفتها ! »

فقالت الكبرى « بالطبع ، ومن أجل ذلك أرسلتنا إلى هنا »

فقالت أختها : « علينا أن نتسمع خارج الباب »

فأجابت الكبرى « ولكن افرضى أن أحداً يجئ ... »

فسألتها أختها « من ؟ »

فأجابتها قائلة : « الوالدة »

فقالت الصغرى متفزعة « سيكون ذلك أمراً فظيعا »

فأشارت أختها قائلة « راقبى الممر وأنا أتسمع »

فأظهرت الصغرى استياءها وقالت : « ولكنك فى هـذه الحالة لا تذكرين لى كل شئ »

فقالت أختها « لا تخافى »

فقالت الصغرى : « أأنت جادة »

فقالت الكبرى : « أقسم لك أنى جادة وعليك أن تسعلى إذا سمعت صوت قادم »

وانتظرتا فى الممر وقلبـاهما يخفقان من الانفعال ، فـإذا حدث ! سمعت وقع أقدام تصعد إلى حجرة الدراسة المظلمة ، وقد كان القادم أوتو نفسه ، وقد قصد حجرة الآنسة [illegible] الباب من ورائه . وتسللت الفتاة الكبرى إلى الموضع الذى اختارته وتسمعت من ثقب البـاب وهى لا تكاد تجرؤ على التنفس . وأخذت الأخرى تنظر إليها نظرات تنم على الحسد . ودفعها حب الاستطلاع إلى المضى حثيثا نحو الباب ؛ ولكن أختها صدت لها وأشارت إليها فى غضب لترجع إلى مكانهـا وتراقب فى آخر الممر . وظلتـا منتظرتين بضع دقائق بدت للفتاة الصغرى كأنها الأبدية . وكانت تشعر بحمى القلق تتمشى فى بدنها وكأنها كانت واقفة على مثل جمر الغضى . وبصعوبة استطاعت أن تكف غرب دموعها لأن أختها كانت تسمع كل شئ ، وأخيراً سمعت

صوتاً فاستولى عليها الخوف وسعلت؛ وهربت الفتاتان إلى حجرة الدراسة . ومرت لحظة قبل أن يواتيهما النفس لتتحدثا ، وقالت الصغرى غاضبة :

« حدثيني إذن عن كل ماحدث »

فبدت علائم الحيرة على وجه الفتاة الكبرى وقالت كأنها تخاطب نفسها :

« إنى لا أفهم »

فقالت الصغرى : « ماذا ؟ »

فأجابتها أختها « إنه شئ يتجاوز المألوف »

فقالت الصغرى غاضبة : « ماذا ؟ ماذا ؟ »

فبدأت الكبرى مجهوداً وهى تقول :

« لقد كان شيئاً يتجاوز المألوف ويختلف كل الاختلاف عما كنت أتوقعه ، وأظن أنه حينما دخل الحجرة أراد أن يطوقها بذراعيه أو أن يقبلها لأنها قالت له : دع ذلك الآن لأن لدى شيئاً خطيراً أريد أن أخبرك به . ولم أستطع أن أرى شيئاً لأن المفتاح كان معترضاً ، ولكنى كنت أستطيع السمع جيداً ، وسألها أوتو فى نبرة لم أسمعها منه قط قبل ذلك قائلا : ما الخبر ؟ وأنت يا أختى تعرفين كيف يتحدث فى العادة بصوت عال وفى قحة ، ولكنى واثقة من أنه كان خائفاً ، ولا بد أنها لحظت أنه يخدعها لأن كل ما دلته هو : أظن أنك تعرف ما فيه الكفاية ؟ فقال : أبداً . فقالت فى صوت حزين : إذا كان الأمر كذلك فلماذا تنائيت عنى ؟ ففى خلال أسبوع لم أكد أسمع منك كلمة ، وأراك تتجنبنى جهد طاقتك ، وقد ابتعدت عن الفتاتين وأمسكت عن لقائنا فى الحديقة ، فهل نبذت تجاه الاهتمام بى والعناية بأمرى ؟ آه إنك تعلم جيداً لماذا تتراجع إلى الوراء هكذا —

فظل صامتاً لحظة ثم قال : إنك لا ريب تعرفين اقتراب ميعاد الامتحان ، وليس لدى وقت أضيعه ، فماذا أستطيع أن أعمل ؟ وأخذت تبكى وقالت له فى رقة وهى تنشج : قل الحق يا أوتو ؟ ما الذى صنعت حتى تعاملنى هذه المعاملة ؟ إنى لم أطالبك بشىء ، ولكن يلزم أن تتحدث فى صراحة ، وملامحك تظهر لى بوضوح أنك تعلم كل شىء عن ... »

وأخذت الفتاة تنتفض ولم تستطع أن تتم جملتها

فقتربت منها أختها وسألتها :

كل شىء عماذا ؟

فقالت : كل شىء عن الطفل !

فقاطعتها الصغرى قائلة : طفلهما ! طفل ! هذا مستحيل

فقالت الكبرى : هذا ما قالته

فقالت أختها : لا يمكن أن تكونى قد أحسنت السمع

فأجابت الكبرى : ولكنى سمعت جيداً ، وإنى متأكدة مما سمعت ، وقد أعاد هو قائلا « طفلنا » وبعد هنيهة استرسلت تقول : وماذا نصنع الآن ؟ وحينئذ ...

قالت الصغرى : وحينئذ ماذا ؟

فأجابت أختها : حينئذ سملت فابتعدت عن الباب

فارتبكت الصغرى ارتباكا شديداً ، والتبس عليها الأمر ثم قالت :

ولكن لا يمكن أن يكون لها طفل ، وأين يكون هذا الطفل ؟

فقالت أختها : لا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع أكثر مما تعرفين

فقالت الصغرى : ربما كان هذا الطفل فى منزلها ، ووالدتنا بطبيعة الحال لا تسمح لها بإحضاره إلى عندنا ، ولا بد أن هذا هو سبب حزنها

وأجابت الكبرى : آه . هذا كلام فارغ إنها لم تعرف أوتو إذن !

وذهب بهما التفكير كل مذهب ، وعادت الصغرى تقول : طفل ! هذا أمر مستحيل . كيف يمكن أن يكون لها طفل؟ إنها غير متزوجة ، ولا أطفال لغير المتزوجين

فقالت أختها : ربما كانت متزوجة

وردت الصغرى قائلة : لا تكونى غبية، إنها لم تتزوج أوتو

فقالت الكبرى : حسن ، إذن ... ؟

وأخذت كل منهما تحدق فى الأخرى

وقالت إحداهن فى حزن : إنها مسكينة آنستنا مان

وكان يبدو دائماً أنهما تعودان إلى ترديد هذه الكلمة ، وكأنها كانت تأوه عطف ، ولكن شعلة الاستطلاع كانت تعود بعد ذلك إلى التوهج

وقالت الصغرى : أتظنينها بنتا أو ابنا ؟

وأجابتها أختها : كيف أستطيع علم ذلك.

فقالت الصغرى : وماذا تقولين إذا سألتها عن ذلك فى تلطف ولباقة ؟

فزجرتها أختها قائلة : أوه ! الزمى الصمت !

فسألت الصغرى : ولم ذلك ؟ إنها تعاملنا بكثير من الرعاية والعناية

فقالت أختها : وما فائدة ذلك ؟ إنهم يخفون عنا أمثال هذه الأشياء ، وإذا تحدثوا عنها وجئنا إلى الحجرة ، فإنهم يسكتون عن الحديث ويشرعون فى التكلم معنا بكلام فارغ كأننا لانزال أطفالا ، وذلك بالرغم من أننى فى الثالثة عشرة من عمرى ، فما فائدة سؤالها لتخدعنا وتكذبنا ؟

فقالت الصغرى : ولكنى أريد أن أعرف

فأجابتها أختها : وأنا كذلك تواقة إلى

المرفقة، والتي يصادق هو أن أوتو ادعى أنه لا يعرف شيئاً عن ذلك، وحينما يكون للإنسان طفل لا بد له أن يعلم ذلك، كما لا بد له أن يعلم أن له أباً وأماً

فقال الصغرى: أوه! إنه كان يدعى ذلك، ومن عادته الكذب!

فأجابت الكبرى: ولكنه لا يكذب في مثل هذه الأمور إلا حينما يدعمها كشفنا

واعترض حديثهما مجيء المربية. وتظاهرا بالجد في العمل، ولم يغب عنهما ملاحظة احمرار جفنيها وما دل عليه صوتها من جيشان العاطفة، وجلستا في هدوء وصمت وكانتا تنظران إليها نظرات احترام، ولم تكفا عن التفكير في أن لها طفلا وأنها حزينة من أجل ذلك، وبغتة ألم بهما الحزن.

وعند تناول الغداء في اليوم التالي علمتا بهذه الأنباء المزعجة، وهي أن أوتو سيغادر المنزل، فقد أخبر صحبه أن عليه أن يبذل جهداً كبيراً [illegible] في الامتحان، وأنه لا يجد في المنزل الهدوء الكافي لذلك، وأنه سيقيم في مسكن غير هذا مدة الشهرين القادمين.

وأثار ذلك مشاعر الفتاتين، وأدركتا أن الرحيل [illegible] من ألوان الصلة بحديث اليوم السابق، وعرفتا بالغريزة أن هذا الرحيل هو فرار الجبان. ولما جاء أوتو ليودعهما أبدت منهما إعراضاً وتجهماً، ورغم ذلك رافقتا توديعه للآنسة مان، وقد صافحته في هدوء ولكن شفتيها اختلجتا

وبدل ذلك من أحوال الفتاتين في تلك الأيام، فقد قل ضحكهما، وأصبحتا لا تستشعران السرور في شيء، وبدا عليهما الحزن، وكانتا تتنقلان في أرجاء المنزل وقد احتواهما القلق، وغلب عليهما سوء الظن بمن كان حولهما من الكبار، واعتقدتا أن وراء أبسط الكلمات التي تسمعانها خدعة وأنها تنطوي على أكذوبة، وكانتا في رقابتهما الدائمة كالظلال الخاطفة تتسمعان خلف الأبواب وتحاولان النفاذ من الشبكة التي تحجب عنهما السر الخفي أو على الأقل أن تنظرا خلال خيوطها بنظرة إلى عالم الواقع، وقد فقدتا يقين الطفولة وغفلتها القانعة، وعلاوة على ذلك فقد كانتا على الدوام تنتظران كشفاً جديداً وتخشيان أن يفوتهما ذلك، وقد [illegible] الخادعة جو الخداع والغش الذي كانتا تعيشان فيه، وكانتا كلما اقترب منهما والداهما تظاهرتا بالانهماك في العمل، وزاد ما بينهما قرباً تحالفهما على مقاومة عالم الكبار، وكانتا حيناً يملؤهما شعورهما بالجهل والعجز يتملكهما دائم حب الملاطفة والملاينة

ويجعلهما تتمانقان . وفي بعض الأحيان كانت تنهمل دموعهما . وهكذا انتقلت حياتهما إلى مرحلة خطيرة بدون سبب ظاهر

وبين متاعبهما الكثيرة كان هناك شيء أسوأ وقعاً في نفسيهما من كل شيء آخر ، وهدتهما لباقتهما دون أن تتبادلا الأفكار إلى عقدهما العزم على أن تجنبا الآنسة مان المتاعب جهد الطاقة لما تعانيه من حزن ، فجدتا في التحصيل وتعاونتا في الدروس والتزمتا الهدوء وأحسنتا التصرف وحاولتا أن تسبقا الآنسة مان إلى رغباتها ، ولكن كان يبدو لهما أن المربية لم تلحظ ذلك ، وكان هذا أشد ما يثير ألمهما . ولقد كانت غير مكترثة ، وحينما كانت تخاطبها إحداهما كانت تجفل كالذي استطير نومه ، وكان يبدو أن نظرتها لا ترتد إليهما إلا بعد أن تسير مسافات شاسعة ، وكانت تقضي ساعات وهي جالسة سابحة في الأحلام ، وكانت الفتاتان تسيران على أطراف أصابعهما خشية إزعاجها لأنهما كانتا تتخيلانها مفكرة في طفلها الغائب ، وقد جعلتهما أنوثتهما المستيقظة أشد عطفاً مما كانتا قبل على المربية التي ألانت لهما كنفها في تلك الآونة . والآنسة مان التي كانت دائمة المرح والتي كانت في بعض الأحيان يغلب عليها القليل من الصلف قد أصبحت أكثر تفكيراً وأشد رعاية وتبصراً . وشعرت الفتاتان بأن أعمالها كلها تنم على حزن خفي ، ولم تبصراها باكية ولكن جفونها كانت قريحة ، وكان من الواضح أنها تريد أن تحتفظ بمتاعبها فلا تفضي بها إلى أحد ، وكان يحزنهما ويحز في نفسيهما عجزهما عن مساعدتها

وفي ذات يوم اتجهت المربية نحو النافذة لتمسح دموع عينيها فتشجعت الفتاة الصغرى وأمسكت بيدها قائلة « إنك جد محزونة يا مس مان ، وليس هناك خطأ من ناحيتنا فهل الأمر كذلك ؟ »

فنظرت الآنسة مان إلى الفتاة نظرة عطف وربتت على شعرها وقالت :

« كلا يا عزيزتي فليس هناك أي خطأ من ناحيتك » وقبلت الفتاة في جبينها

وهكذا واصلت الفتاتان الرقابة ، ودخلت إحداهما حجرة الجلوس على غير انتظار وسمعت كلمة أو كلمتين لم تقصد أن تسمعهما ، وغير والداها موضوع الحديث ؛ ولكنها كانت قد سمعت ما يكفي لجعلها تفكر

كانت الوالدة تقول « نعم لقد استرعى نظري نفس الشيء وسأتحدث إليها في ذلك »

وفي أول الأمر وضعت الفتاة الصغرى القلنسوة على رأسها وانطلقت لتستشير أختها فقالت

« حول ماذا تظنين هذه الضجة المثارة »

ولكنهما لحظتا عند الغداء كيف كان والدها ووالدتهما يوجهان النظرات الفاحصة إلى المربية ، وكيف كانا بعد ذلك يتبادلان النظرات ذوات المعانى ، وبعد الغداء قالت الوالدة للآنسة مان :

« هل تسمحين بالحضور إلى حجرتى ؟ إنى اود أن أتحدث إليك »

فاهتاج ذلك الفتاتين لتوقعهما حدوث شئ ، وقد ألفتا استراق السمع وسارتا لا تخجلان منه ، وكان مناط تفكيرهما هو علم ما خبئ عنهما ، وبادرتا إلى الوقوف خلف الباب بعد دخول الآنسة مان مباشرة وتسمعتا ، ولكنهما لم تسمعا سوى همسات من المحادثة، فهل يظلان فى جهلهما ؟ ولكن لم يلبث أن ارتفع أحد الصوتين ، وقالت الأم غاضبة

« أتحسبين أننا كنا عميا لا نلحظ حالتك ؟ إن هذا يلقى ضوءاً على تصورك لواجباتك كمربية، وإنى لأرتجف كلما فكرت فى أننى عهدت بتربية بناتى لمثل هاتين اليدين ، ولا نزاع فى أنك أهملتهما إهمالا شنيعا »

وبدا أن المربية اعترضت على ذلك ولكنها كانت تتحدث فى هدوء فلم تستطع الفتاتان سماع حديثها

وقالت أمهما « تكلمى ، تكلمى ! كل امرأة خليعة تجد أعذارا ، وامرأة مثلك تقدم نفسها لأول قادم دون أن تفكر فى العواقب ، والله يعين ! ومن الكثير أن تصير فاجرة مثلك مربية ، وما أحسبك تخدعين نفسك فتحسبي أننى أسمح ببقائك فى المنزل بعد ذلك ؟ »

فارتجفت الفتاتان وهما تصغيان ، ولم تستطيعا أن تفهما فهما كاملا ، ولكن اللهجة التى كانت تتحدث بها أمهما بدت لهما فظيعة مستنكرة ، وكان جواب الآنسة مان البكاء والتشنج ، فانحدرت الدموع من عيون الفتاتين ، وازداد غضب الأم حدة وتأججا فقالت :

« أكل ما تستطيعينه هو البكاء والنحيب؟ إن دموعك لا تؤثر فى ، وليس فى نفسى شئ من العطف على أمثالك ، وليس من شأنى أن أعنى بما سيصيبك وأنت، من غير شك تعرفين أين تلتمسين المساعدة مهما شأنك الخاص ، وكل ما أعلمه هو أنك لن تمكثى فى منزلى يوما آخر » .

وكان البكاء والتحيب لايزالان جواب الآنسة مان الوحيد ، ولم تسمعا من قبل انتحابا على هذه الطريقة ، وكان شعورهما يوحى إليهما أن من يبكى مثل هذا البكاء المر لا يمكن أن يكون مذنبا ، وانتظرت والدتهما قليلا فى صمت ثم قالت بحدة :

« هذا هو كل ما أريد أن أقوله لك ، فاجمعى متاعك بعد ظهر اليوم واحضرى إلى فى صباح الغد لتأخذى مرتبك ، وتستطيعين الآن أن تنصرفى » .

وفرت الفتاتان إلى حجرتهما ، فماذا عكن أن يكون قد حدث ؟ وما معنى هذه العاصفة الفاجئة ؟ وفى هذه الغمة المظلمة من أمرهما أخذ يتبين لهما ضوء الحقيقة واهياً ، ولأول مرة كان شعورهما شعور الثائر على والديهما .

قالت الكبرى « ألم يكن من القسوة البالغة أن تخاطبها والدتى بمثل هذا الأسلوب ؟ »

وأخاف هذا النقد الصريح الفتاة الصغرى بعض الخوف فقالت متعثرة :

« ولكن ... ولكن ... نحن لا نعرف ما صنعت » .

فقالت الكبرى « إنى واثقة من أنه لم يقع خطأ ، والآنسة مان لا يمكن أن تخطىء ، والدتى لا تعرفها كما نعرفها نحن »

فقالت الصغرى « ألم تكن طريقتها فى البكاء فظيعة ؟ لقد تركت فى نفسى شعوراً سيئاً » .

فقالت الكبرى : « نعم كانت فظيعة ، ولكن الأسلوب الذى كانت تصيح به والدتى كان مستنكراً معيباً ! »

ودقت الأرض برجليها وفاضت الدموع من عينيها .

وفى هذه اللحظة جاءت الآنسة مان وقد بدا عليها الإعياء وخاطبتهما قائلة : لدى أعمال كثيرة بعد ظهر اليوم ، وإنى أعرف أنكما ستحسنان السلوك إذا تركتكما لنفسيكما ، وسنمضى المساء معاً .

واستدارت وغادرت الحجرة دون أن تلحظ نظرات الفتاتين البائسة .

وقالت الكبرى لأختها : أرأيت احمرار جفنيها ؟ إنى لا أفهم لماذا قست عليها والدتى كل هذه القسوة ؟

وأجابت الصغرى : مسكينة آنستنا مان !

وهكذا عاد التحسر لحالة الآنسة مان فى صوت يعترضه تدفق الدموع ، وجاءت الوالدة تسألهما أتريدان أن يذهبا معها للنزهة

فأجابتا : لا نريد اليوم يا والدتنا .

والواقع أنهما كانتا خائفتين من والدتهما وكانتا غاضبتين لأنها لم تخبرهما بأنها ستطرد الآنسة مان ، وكان الأنسب لحالتهما النفسية تركهما لتخلوا بنفسيهما ، وكانتا تضطربان فى نواحى الحجرة كالعصافير الحبيسة فى القفص وقد ضرسهما بأنيابه ووطأهما بمنسمه جو الزيف والصمت ، وأرادتا أن نعرفا هل تستطيعان أن تذهبا إلى الآنسة مان ، وتسألاها عن جلية الخبر ، وتخبراه أنهما

تريان أن والدتهما قد أسرفت فى الإساءة إليها ، ولكنهما كانتا تخشيان مضايقتها ، وفضلا عن ذلك فإنهما كانتا خجلتين إذ كيف يتسنى لهما الحديث عن أمر كل ماتعلمانه عنه مستمد من الأحاديث المسترقة ؟

وكان عليهما أن تقضيا فترة ما بعد الظهر الطويلة المملة فى خلوة بنفسيهما مهمومتين حزينتين تبكيان من الحين إلى الحين ، مستعيدتين فى ذاكرتيهما ما سمعتاه خلال الباب المقفل وغضب والدتهما القاسى ، وتحيب الآنسة مان اليائس .

وفى المساء جاءت المربية لتراهما ولكنها اكتفت بتحيتهما . وبينما كانت تغادر الحجرة تشوقت الفتاتان إلى الخروج من الصمت ولكنهما لم تستطيعا أن تنطقا بكلمة . واستدارت الآنسة مان عند الباب كأنما دعتها نظرتهما الصامتة وكانت عيناها تلتمعان ببريق العاطفة الثائرة ، وعانقت الفتاتين اللتين فاضت دموعهما وعلا بكاؤهما ، وأعادت الآنسة مان تقبيلهما وأسرعت فى الانصراف .

وكان من الواضح للفتاتين أن هذا هو الوداع الأخير .

فبكت إحداهما قائلة « لن نراها بعد الآن »

وقالت الأخرى « إنى أعرف ، فعند عودتنا من المدرسة غداً تكون قد ذهبت »

فقالت الصغرى « ربما استطعنا زيارتها بعد حين من الزمن وستريننا طفلها »

فقالت الكبرى « نعم ، إنها ستظل دائما عزيزة علينا »

وعادت الصغرى تقول « مسكينة آنستنا مان ! »

وبدا لهما أن هذه الكلمة الحزينة تلخص لهما ما يعصره لهما القلب

وقالت الكبرى « لا أستطيع أن أتصور كيف نستطيع البقاء بدونها ! »

فأجابت أختها « إنى لا أطيق قبول مربية بعدها »

ووافقتها الكبرى قائلة « ولا أنا كذلك »

وقالت الصغرى « لن نجد مثيلا للآنسة مان ، وفضلا عن ذلك ... »

ولم تجترئ على إتمام جملتها ، وشعورهما الباطن بالأنوثة جعلهما تحسان نوعا من الاحترام للآنسة مان منذ عرفتا أن لها طفلا ، وكان هذا على الدوام فى فكرها وقد أثر فيهما تأثيراً بالغا

قالت الكبرى « أقول ... ؟ »

فقالت أختها « تقولين ماذا ؟ »

فقالت الكبرى « لقد خطرت لى فكرة ، ألا نستطيع أن نصنع صنيعا جميلا للآنسة مان قبل أن تنصرف لنريها تعلقنا بها ونعرفها أننا لسنا مثل الوالدة ؟ وهل تنضمين إلى

فى ذلك ؟ »

فأجابت أختها « بكل تأكيد ! »

فقالت الكبرى « تعرفين شدة حبها للورود البيض ، فلنذهب فى صباح الغد ونشترى وردات بيضاء قبل ذهابنا إلى المدرسة ونضعها فى حجرتها »

فسألت الصغرى « ولكن متى نفعل ذلك ؟ »

فقالت أختها « بعد الرجوع من المدرسة »

فقالت الصغرى « لا فائدة من ذلك ، إنها ستكون قد ذهبت . اسمعى ، سأتسلل فى باكورة الصباح قبل الفطور وأحضرها إلى هنا ونحملها بعد ذلك إليها »

فقالت الكبرى « حسن جدا ، علينا أن نستيقظ مبكرتين »

ورجعت كل منهما إلى حصيلتها من النقود ، وسرهما أنهما ستتمكنان من إظهار مدى حبهما للآنسة مان

وفى باكورة الصباح طرقتا باب الآنسة مان والورود فى أيديهما ، ولم تتلقيا ردا ، فظنتا أنها لا تزال نائمة فنظرتا من ثقب الباب ، ولكن الحجرة كانت خالية ولم ينم أحد فى الفراش ، ووجدتا على المنضدة رسالتين ، فاعترتهما الدهشة . فماذا حدث ؟

قالت الفتاة الكبرى « سأذهب توا إلى الوالدة »

وبدون أى أثر للخوف وفى تحد ظاهر جبهت والدتها بهذه الكلمات !

« أين الآنسة مان ؟ »

فقالت أمها « أظنها فى حجرتها »

فقالت الفتاة « ليس بحجرتها أحد وهى لم تذهب إلى فراشها ، ولا بد أنها غادرت المنزل فى الليلة الأخيرة ؛ فلماذا لم تقولى لنا شيئا عن هذا الموضوع ؟ »

ولم تكد الوالدة تلحظ لهجة التحدى ، حتى اصفر وجهها وقصدت إلى زوجها ، وذهب الزوج إلى حجرة الآنسة مان

ومكث بها هنيهة . وفى أثناء ذلك كانت الفتاتان تنظران إلى والدتهما نظرات غضب متجهم ، وبدا أنها عاجزة عن مواجهة هذه النظرات

وعاد والدهما أدراجه من حجرة الآنسة مان وفى يده خطاب مفتوح ، وكان هو كذلك مهتاج العاطفة . وانسحب الوالدان إلى حجرتهما وتبادلا الحديث بصوت منخفض ، وفى هذه المرة خافت الفتاتان من محاولة استراق السمع فإنهما لم تريا والدهما من قبل فى مثل هذا المنظر

ولما خرجت والدتهما من الحجرة رأتاها تبكى ، فأرادتا أن تسألاها ولكنها قالت لهما فى حدة « إذهبا إلى مدرستكما ؛ إنكما ستتأخران »

ولم تجدا بدا من الذهاب ، وظلتا ساعات في حجرة الدراسة دون أن تصغيا لكلمة واحدة ، ثم انطلقتا إلى المنزل ، وهناك بدا أن فكرة رهيبة قد استولت على عقول من في المنزل جميعا ، حتى الخدم كان منظرهم عجيبا ، وجاءت الوالدة لاستقبالهما وأخذت تتحدث إليهما بكلمات عبثت بتلاوتها

« إنكما لن تريا الآنسة مان بعد ذلك إنها ... » ولم تكمل الجملة فإن ما بدا على الفتاتين من مظاهر الغضب والتهديد جعل الوالدة لا تستطيع الكذب عليهما ، فتركتهما واختفت بحجرتها

وفي عصر ذلك اليوم ظهر أوتو في المنزل وكان أحد الخطابين موجها إليه وقد استدعى للحضور ، وكان هو كذلك قلقا متقع الوجه ولم يوجه إليه أحد كلاما ، وتحاشاه كل إنسان ، وأبصر الفتاتين جالستين في إحدى زوايا الحجرة مهمومتين فذهب إليهما

فنظرتا إليه في فزع وصاحتا به « لا تقترب منا ! »

فأخذ يتمشى هنا وهناك لحظة ثم اختفى ولم يتحدث أحد إلى الفتاتين ، ولم تتجاذبا هما أطراف الحديث ، وكانتا تتنقلان في المنزل من حجرة إلى أخرى بغير غرض ، وتنظر كل واحدة منهما إلى وجه الأخرى الذى يلتمه الدموع حينا بتقاطع طريقاهما ، وعرفتا في هذه الآونة كل شيء ، وعلمتا أنهما قد خدعتا ، وعرفتا إلى أي حد تصل الصنعة بالناس ، وفقدتا حبهما لوالديهما ، وأصبحتا لا تثقان بالوالد ولا بالوالدة ، ووثقتا من أنهما لن تثقا بأي إنسان بعد ذلك ، وثقل على كاهليهما الضعيفين الصغيرين حمل الحياة ، وتركتا خلفهما طفولتهما السعيدة التي لم تعرف الهم ، وانتظرتهما المخاوف المجهولة . وكان من وراء تفكيرهما إدراك المعنى الكامل لكل ما حدث ؛ ولكنهما كانتا تفزعان من محتملاته المروعة ، وقربت بينهما العزلة ولكنها كانت صحبة خرساء لأنهما لم تستطيعا تحطيم حاجز الصمت ، وانقطع ما بينهما وبين الكبار انقطاعا تاما ، ولم يستطع أحد الدنو منهما لأن منافذ روحيهما قد أغلقت وربما امتد ذلك بضع سنوات قادمة ، وكانتا في حرب مع كل من كان حولهما لأنهما في يوم وجيز كبرتا ونضجتا

وفي أعقاب المساء عندما كانتا تنفردان في حجرة النوم كان يعاودهما خوف الأطفال من العزلة ، ويغشاهما الفزع من المرأة الميتة ، وتلم بهما رهبة المحتملات المرعبة ، وكان البرد شديدا قارسا وقد أذهلهما الاضطراب الذى شمل المنزل عن جهاز التدفئة ، فلاذتا بفراش واحد وتضامتا لتتبادلا التشجيع ولتستثمرا الدفء ، وكانتا لا تزالان عاجزتين عن تحت

أسباب نعيمها ، ولكن أخيرا في تلك الآونة وجدت عاطفة الفتاة الصغيرة المكبوتة متنفسا في عاصفة من الدموع . والكبرى كذلك أخذتها نوبة من البكاء والنحيب ، وهكذا كانت كل واحدة منهما تبكي وتنشج وهي بين ذراعي الأخرى . ولم يكن بكاؤها على فقد الآنسة ماري أو على الحفرة التي وقعت بينهما وبين والديهما ؛ فلقد هزها توقع ما قد يصيبهما في هذه الدنيا المجهولة التي أبصرتا حقائقها لأول مرة في هذا اليوم ، وقد نفرتا من الحياة التي نشأتا في ظلالها ، تلك الحياة التي بدت لهما مثل غابة ملأى بالصور التي تبث الرعب وتثير الحذر ؛ ولا بد لهما من عبور هذه الغابة ، ولكن هذا الشعور بالهم والحزن أخذ يستحيل شيئا فشيئا شعورا وهميا ؛ وقلت حدة بكائهما وأصبحتا لا تبكيان إلا في فترات متباعدة ، وهدأ نفسهما ، وشملهما الهدوء والصفاء واستغرقتا في النوم

علي أدهم

مختارات من الأدب الفرنسي

شعر ونثر

للأستاذ أحمد حسن الزيات

مجموعة من أروع القصص القصير وأبلغ القصائد المختارة الصفوة من روائع كتاب فرنسا وشعرائها

ثمنه ٢٥ قرشا عدا أجرة البريد